الفصل الثاني

حياة محمد قبل النبوة

كان عبد المطلب بن هاشم قد جاوز السبعين من عمره ، في عام الفيل ، وكان ابنه ، عبد الله ، في حوالي الرابعة والعشرين من عمره ، وأحب الشيخ المسن أن يفرح بزواج أصغر أبنائه ، عبد الله ، فخطب له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وفي نفس الوقت ، الذي تزوج فيه ابنه من آمنة ، تزوج هو - عبد المطلب - من ابنة عمها ، هالة (١) فولدت له حمزة - عم النبي ، وقريبه في السن - وأقام عبد الله ثلاثة أيام مع زوجه ، عند أهلها ، كما هي العادة حينذاك ، ثم انتقل معها إلى منازل أسرته ، ولم يطل مقامه معها ، فقد خرج إلى الشام ، وتركها حاملا .

وقد ذكرت روايات التاريخ عن عبد الله أنه كان وسيما ، جميل الطلعة تتحدث به فتيات قومه .

مرت أشهر الرحلة ، التي وصل فيها عبد الله إلى غزة ، ثم عاد . وفي طريق

---

(١) هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة . وقيل إن آمنة كانت في كفالة عمها ، أهيب ، لوفاة أبيها ، وهب

عودته، اضطر للبقاء في يثرب، حيث أصابه المرض فبقي عند أخواله، من آل النجار، وتابعت القافلة مسيرها إلى مكة، وأخبر رفاقه عبدالمطلب بمرض ابنه. فأرفد أكبر أبنائه، الحارث، ليعوده، ويأتي به، ولكن الحارث وصل إلى يثرب، بعد أن كان أخوه، قد وسد قبره، وهو، في شبابه الغض، لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

فجع الأب، عبدالمطلب، بموت ابنه، وفجعت الزوج العروس بموت رجلها، وخسرت بذلك سعادتها، وكان عزاؤها الوحيد ماخلفه في أحشائها، فبقيت تعيش مع الأمل، تنتظر وليدها، والأثر الوحيد الباقي من عبدالله.

أما ثروة عبدالله فلم تكن بالثروة الكبيرة: فهو في مقتبل العمر، وبداية العمل التجاري، ومازال أبوه حيا، فلم يرث شيئاً بعد، فخلف لزوجه - على بعض الروايات - خمسة من الأبل، وقطيعاً من الغنم، وجارية، اسمها أم أيمن، حاضنة النبي بعد مولده - وهي ثروة لا تجعل صاحبها من الأثرياء، ولا من الفقراء المعدمين.

وصل الخبر إلى الجد المفجوع أن آمنة وضعت غلاماً، فامتلأ قلبه بالبشر والسعادة، ورأى في الوليد الحفيد، صورة لابنه الفقيد، فأخذه إلى الكعبة، فرحاً به، وسماه محمداً. ثم أعاده إلى أمه، لتجد فيه السلوى والعزاء.

واختلفت روايات المؤرخين في سنة ولادة محمد(ص)، فقيل: قبل عام الفيل، وقيل في نفس العام، وقيل بعده كما اختلف في الشهر

وفي اليوم، وفي الوقت، أكان ليلا، أو نهاراً؟ وتقرر جمهرة من المؤرخين أن مولده كان في ١٢ ربيع الأول، ويحدد بعضهم ميلاده في ٢٠ أغسطس (آب) سنة ٥٧٠ م، أي عام الفيل. أما اسمه محمد، فعلى الرغم من أنه لم يكن شائعاً بين العرب، إلا أنه كان معروفاً بينهم، حتى قيل إن رجالا من قريش سألوا عبد المطلب عن اختياره هذا الاسم، فقال: أردت أن يكون محموداً في السماء، لله، وفي الأرض، لخلقه.

وكان من عادة بعض الأسر الشريفة المقتدرة إرسال أطفالها مع المراضع إلى البادية، يقضي الطفل سني طفولته فيها، حيث الهواء النقي، والصحة، والقوة، واللغة السليمة. وكان لبعض القبائل شهرة بمرضعاتها، ومنها قبيلة بني سعد. وفي انتظار مجيء المراضع، أخذته ثويبة، جارية عمه أبي لهب، فأرضعته، كما أرضعت عمه، حمزة، فكانا أخوين في الرضاع. ولم ينس محمد لمرضعته، ثويبة عملها، على الرغم من أنها لم ترضعه إلا أياماً، فكان يصلها ماعاشت، ويحفظ لها الود، الى أن ماتت، في السنة السابعة للهجرة.

وجاءت المراضع إلى أمه في مكة، وزهدن في اليتيم، محمد، كعادتهن، طمعاً في الخير المنتظر من الآباء، ولم يبق لحليمة بنت أبي ذؤيب غير محمد، فأخذته، لأنها خجلت أن ترجع مع صاحباتها، دون رضيع، وقال لها زوجها، الحارث بن عبد العزى «عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة». وتذكر حليمة وزوجها أنهما عرفا البركة في الغنم واللبن، منذ أخذا هذا الرضيع اليتيم.

ولاشك أن حياة البادية أفادت محمداً، كما تفيد كل طفل يربي فيها: في البادية نما جسمه، وفيها تعلم اللغة العربية، من ينابيعها، حتى كان يقول، بعد ذلك، لأصحابه: « أنا أعربكم، أنا قرشي. واسترضعت في بني سعد بن بكر ». قضى الطفل، محمد، سنتين في البادية، حيث كانت ترضعه حليمة، وتحتضنه ابنتها، للشيماء وعاد، بعد ذلك، مع حليمة، إلى أمه، ثم رجع ثانية إلى البادية، حيث قضى عامين آخرين تعود خلالها على خشونة العيش، وقسوة الصحراء، مما لابد منه لكل من يعيش أشهراً وسنوات في الخيام، وسط البيئة البدوية، عند بني سعد. وبقيت حليمة موضع حبه ورعايته، بقية حياته، وماجاءته مرة إلا وأكرمها، وعادت من لدنه تحمل الخير والمال، وخاصة بعد زواجه من خديجة.

أعادت حليمة محمداً إلى أهله، فعاش في حجر أمه، وكفالة جده، للشيخ الهرم، فكان يغدق عليه من عطفه وحبه ما يعوض عليه ما فقده من حنان الأب ورعايته، وكثيراً ما أجلسه معه، عند الكعبة، على فراشه، بينما كان أبناء عبدالمطلب يجلسون حوله.

وشعر محمد باليتم، وعرف معناه، لأول مرة، عندما أخذته أمه في زيارة، إلى يثرب، فرأى هناك للبيت، الذي مات فيه أبوه، والقبر للذي دفن فيه. ولا شك أنه سمع الكثير من أمه عن أبيه، ورأى عبرات الحزن تنحدر من عينيها. وبعد شهر، عزمت آمنة على العودة إلى مكة، وفي طريق العودة، مرضت، وتوفيت، ودفنت في قرية

الأبواء (١)، وعادت أم أيمن، بيتيم(٢) الأبوين إلى مكة، بعد أن رأى، وهو في تلك السن المبكرة، ووحشة السفر والغربة، مرض أمه، ووفاتها، فكان الألم يحز في قلبه، ويعصر نفسه، وإن كان الجد الكبير قد حاول تخفيف آلام حفيده، بزيادة إكرامه، والعطف عليه. ولكن هذا العطف لم يطل أمده، فقد مات عبدالمطلب، في حوالي الثمانين من عمره، وكان محمد ما يزال في الثامنة.

خسرت قريش بوفاة عبدالمطلب ركناً من أركانها، وشخصية من أعظم شخصياتها، وضعفت مكانة بني هاشم بموته، وأخذ بنو أمية يستعدون لينالوا الزعامة، وقد طمعوا فيها من قبل. وخسر محمد، بوفاة جده، القلب الكبير، والعناية والحنان، فشيع النعش الحبيب، ولم ينقطع بكاؤه، وكأنه كان يبكي حينذاك أباه وأمه وجده، في وقت واحد.

كان عبدالمطلب قد اختار من أبنائه أبا طالب، دون غيره، لكفالة حفيده، محمد، خاصة وأن أبا طالب هو أخ شقيق لعبدالله، والد محمد، ويتصف بالنبل وكرم الأخلاق. وكان أبو طالب عند حسن ظن أبيه: فقد ضم محمداً إلى بنيه، بل آثره عليهم، في كثير من

---

(١) الأبواء: قرية على بعد حوالي ٤٠كم جنوبي يثرب.

(٢) : وتسمى بركة.

الأحيان، مقدرا ظروف اليتم، وشعور الفتى الصغير، وقد تولت عليه الكوارث والأحزان.

كان محمد في الثانية عشرة من عمره، (وقيل في التاسعة)، عندما عزم عمه، أبو طالب، على السير، بقافلة تجارية، إلى بلاد الشام وتعلق قلب محمد بهذه الرحلة، وبالعم الكريم، فرق قلب أبي طالب لابن أخيه اليتيم، وأخذه معه في رحلته. وتذكر الروايات أنه عندما وصلت القافلة إلى بصرى، وحلت فيها، حيث كان يقام فيها سوق تجاري كبير، تقصده قوافل العرب وتجارها، اجتمع الراهب «بحيرى» بالفتى الصغير، محمد، ويذكر ابن هشام، في السيرة، تفاصيل هذا اللقاء، فيقرر أن بحيرى قال لمحمد: «ياغلام، أسألك، بحق اللات والعزى، إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه». وأجابه محمد بقوله «لاتسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما..». وتذكر الرواية أن الراهب بحيرى، تفرس محمداً، وعرف فيه أمارات النبوة، مما كان قد عرفه من الكتب السماوية، وأنه قال لأبي طالب: «ما هذا الغلام منك؟» فأجابه: «ابن أخي، مات أبوه، وأمه حبلى به». فقال بحيرى: «ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ماعرفت، ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده.»

وكانت هذه أول رحلة لمحمد، بتوسع خلالها أفق معارفه،

ويطلع على مواطن بعض القبائل العربية ، في وادي القرى ، وجنوب بلاد الشام . وربما سمع بعض الأخبار عن سيطرة الروم على عرب الشام . ثم عاد مع عمه إلى مكة ، واكتفى أبو طالب بربحه من تلك القافلة ، وعاد ليعيش مع عياله ، حياة فيها شيء من التقتير ، لكثرة أفراد أسرته ، وقلة ما يملك :

وقعت وقائع حروب الفجار ، ومنها ما كان بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس عيلان (من هوازن) ، بسبب مقتل عروة الرحال الهوزاني ، على يد البراض بن قيس الكناني ، وقيادة هذا الأخير لقافلة ملك الحيرة ، مما أوقع القتال عدة سنوات بين القبيلتين العربيتين ، وانتهى بصلح بين الطرفين . وقد اختلفت الروايات التاريخية في تحديد سن محمد خلال هذه الحرب ، فقيل إنه كان في الخامسة عشرة ، وقيل في العشرين . كما اختلف في الدور ، الذي قام به خلال معاركها ، فمنهم من قال إنه كان يجمع السهام ، ويعطيها أعمامه ، ومنهم من ذكر أنه رمى السهام بنفسه . وربما كان الاختلاف بسبب استمرار الحروب عدة سنين ، مما تصح معه مختلف الروايات .

وقد ذكر الرسول الكريم (ص) هذه الحادثة فقال : « قد حضرته مع عمومتي ، ورميت فيها بأسهم ، وما أحب أني لم أكن فعلت . » ولاشك أن مثل هذه الحوادث كانت كدروس في الحياة ، يتدرب خلالها محمد على القتال ، والصبر على المشاق ، والتغلب على العقبات ، إعدادا لما كان ينتظره ، في المستقبل القريب ، من مهام جسام .

ضجت مكة بالمظالم، خاصة بعد وفاة عبد المطلب، الذي كان موحداً كلمتها، جامعاً بطونها؛ وقد فقدت بعده الزعامة، وضاعت هيبة الحكم، وتفرقت كلمة القوم، وازداد طمع المرابين، وكثرت أنات المستغيثين، وصيحات المظلومين، فدعا الزبير بن عبد المطلب الى اجتماع حضره شيوخ بعض الأسر من هاشم وبني تيم، وذلك في دار عبدالله ابن جدعان التيمي، وتعاهد الحضور على نصرة المظلوم، حتى يؤدي إليه حقه. وسمي هذا الاجتماع «حلف الفضول»، وقد حضره محمد، مع أعمامه، وذكره بعد بعثته، فقال: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت.»

رعى محمد الغنم في صباه، حيث وجد في ذلك عملا شريفاً، يكسب منه عيشه، ويخفف من أعباء عمه، أبي طالب، كثير العيال، قليل المال. فكان يرعى أغنام أهله، وأهل مكة، في الوديان، والسفوح القريبة من مكة. وكان، بعد بعثته، يذكر رعايته للغنم مغتبطاً فيقول: «بعث موسى، وهو راعي غنم، وبعث داود، وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي، بأجياد.» وقد أفاد من هذا العمل: إذ قوى جسمه، وبصره، وبعده - بعض الوقت - عن مجتمع قومه، فسنحت له الفرص للتفكير في أحوالهم، وعقائدهم، وآلهتهم، وأخلاقهم. ولا شك، أنه في فترة رعيه للغنم، كان يفكر في كل شيء: في الكون والأفلاك، في الأرض والسماء، في الشمس والقمر، في الأوثان والأصنام. ومما يدل على

تفكيره هذا، أنه لم يؤمن بها. ومن الطبيعي أنه خرج على مألوف قومه: فكفر بأصنامهم، ولم يسجد لآلهتهم، ولا أكل من لحوم القرابين، ونفرت نفسه من أوهام الوثنية وضلالاتها. وساعدته فترة رعى الغنم على الاعتصام بالفضيلة، فزاد ذلك في تهذيب طباعه، وسلامة فطرته، وطهارة نفسه، وسمو غريزته. ومن الطبيعي أن تعلمه رعاية الغنم الحذر واليقظة، وتعده لحمل الأمانة الكبرى.

عاش محمد في بيت أبي طالب، يشارك أهله وقومه بعض أعمالهم، ويناى بنفسه عن كثير من عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم، وكان يذهب، في الأشهر الحرم، إلى أسواق العرب: في عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، يستمع الشعر والمعلقات، والخطب والأحاديث، وكان يعجب بما يقوله الأحناف، أمثال قس بن ساعدة. ثم يبتعد عما يرى شباب قومه قد انغمسوا فيه من لهو وشراب ومجون، وكانت نفسه تعاف هذا النوع من الحياة، وكأنه قرأ سطور الغيب. وعرف المهمة، التي أعدته الأقدار لها: فما دنس حياته، قبل البعثة، بشيء مما يدنس الشباب حياتهم به. وصدق الرسول الكريم حين وصف نفسه فقال: «أدبني ربي، فأحسن تأديبي»، وصدق فيه قول الله، عز وجل: «وإنك لعلى خلق عظيم». فلا عجب إذا رأينا قريشاً تلقبه، قبل بعثته، بالأمين. وحين دخل حرم الكعبة، في حادثة حسم مشكلة

الحجـر الأسـود ، في أثنـاء بناء الكعبـة ، نادى بعض الوقوف : « جـاء الأمين » . بل كـانت فرحتهم به ، وقبـولهم ، برضـى وسرور، لحكمه ، دليل مكانته بين قومه ، تلك المكانة التي حـاز ها بسمو خلقه ، وحسـن معشره ، ولين جـانبه . وصدق فيـه قول الله عز وجل : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنهـا صفات وأخلاق اتصف بها محمد، منذ طفولته وفتوته وشـبابه، حتى رجولته، تلك الصفات التي تؤهل صاحبها للزعامة القوية، وتفانى الناس في حبه وتقديره . فقد كان لصفاته وأخلاقه الاجتماعية أثر كبير في أصحابه وغير أصحابه ، حتى قال أحد المشركين من خصومه فيه الكلمة التالية : « ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد له .

لقد كانت خديجة بنت خويلد من أوفر أهل مكة مالا . وكانت قد تزوجت مرتين من بني مخزوم . ثم ازدادت ثروتها بالتجارة ، وكانت تستأجر رجالا من قريش يتاجرون بمالها، مقابل أجر يتقاضونه منها ، وقد رغبت رجالا من كبار قريش، تقدموا لخطبتها، اعتقادا منها أنهم يريدونها لمالها. ولما بلغ محمد الخامسة والعشرين من عمره، رغب عمه ، أبو طالب، أن يجد له عملا يدر عليه ربحا ، أكثر من رعاية الغنم ، وعرض على محمد أن يكلم له خديجة بنت خويلد ، لتستأجره في تجارتها، فقبل محمد ما عرضه عمه عليه ، وخرج أبو طـالب ، فكلم خـديجة كلاما ، يعرب عن

رأى الناس في محمد ، وثقتهم به . قال أبو طالب : «هل لك ياخديجة أن تستأجري محمداً ؛ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرتين (ناقتين صغيرتين)، واسنا نرضى لمحمد دون أربع بكرات» فقبلت خديجة، ويقال إنها قالت « لو سألت ذلك لبعيد بغيض ، فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب » . وأسرع أبو طالب يقول لابن أخيه : « هذا رزق ساقه الله إليك » .

خرج محمد بقافلته التجارية ، بأموال خديجة ، ورافقه غلامها ، ميسرة ، وسار متجها نحو بلاد الشام ، حتى وصل بصري ، فباع ما كان يحمل، وربح ، واشترى، من مصنوعات الشام ما أوصته صاحبة المال بشرائه . واقتربت القافلة من مكة ، تحمل من الأرباح مالم تحمله من قبل ، واستقبلت خديجة محمدا ، فقص عليها خبر رحلته ، وما صادفه من توفيق في البيع والربح . كما أخبرها غلامها ، ميسرة ، بأمانة محمد ، ومهارته ، مما ضاعف أرباحها . كما حدثها عن أخلاقه ، ورقة شمائله ، وطيب نفسه. ويظهر أنها أخذت تميل إليه بقلبها وعواطفها ، وترغبه زوجا ، تفخر به بين سيدات مكة ، وهي التي رفضت طلب الكثيرين من أكابر قريش ، حين أتوها خاطبين . وانتهت علاقة محمد التجارية بخديجة ، وذهب الى داره ، بعد أن أخذ أجره . وبدأت علاقة جديدة ، لم يشعر بها محمد ، فقد كانت بدايتها عند خديجة ، وفي قلبها ، وفكرها . لقد ملأ محمد برجولته وجماله ، وبأخلاقه وصفاته ، وبكلامه وعذب حديثه ، قلب

وتذكر الأخبار ان خديجة أسرت بما في نفسها إلى صديقتها، نفيسة بنت منية، فأسرعت هذه الى محمد، تحدثه في الأمر، فقالت: «مايعنيك أن تتزوج؟» فقال: «مابيدي ماأتزوج به. قالت: «فأن كفيت ذلك، ودعيت إلى المال والجمال، والشرف والكفاءة، الاتجيب؟» قال: «فمن هي؟» قالت: «خديجة». قال: «وكيف لي بذلك؟». وكانت نفسه قد أنست إلى خديجة، وربما كانت نفسه قد حدثته بها، لكنه يعلم أنها السيدة الغنية، التي ردت أكابر القوم، ورفضت الاقتران بهم. ولكن نفيسة طمأنته، وزفت بشرى قبوله إلى خديجة. وتقدم أبوطالب، فخطبها، على أصح الأقوال، من عمها، عمر بن أسد - حيث كان أبوها، خويلد قد توفي، وتم القبول، وخطب أبوطالب، فقال:

«الحمد لله، الذي جعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوبا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله، ابن أخي من لايوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه، برا وفضلا، وكرما وعقلا، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل. » وإن له في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتم من الصداق فعلي وكان الصداق عشرين بكره.

تم زواج محمد، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، من خديجة، وهي (على أغلب الأقوال) في الأربعين، وكان زواجاً موفقاً سعد به الزوجان. وانتقل محمد إلى دارها، وأنجب جميع ذريته منها - عدا ابراهيم، الذي ولد فيما بعد، من مارية القبطية - وتوفي الذكور

منها، وهم : القاسم ، وعبدالله الطاهر. أما بناته ، فهن : زينب ، ورقية، وأم كلثوم ، وفاطمة . ولم يطل للعمر إلا بصغراهن فاطمة .

ولا شك أن الألم قد حز في نفس كل من محمد وخديجة ، عندما افتقدا ابنهما القاسم ، ثم عبدالله ، وإن توفيا صغيرين ، ولم يبق لهذين الأبوين إلا البنات . وقد زوج محمد كبراهن ، زينب ، الى ابن خالتها ابي العاص بن الربيع بن عبد شمس. وإن انتهى هذا الزواج بالفراق، بعد الإسلام . أما رقية ، وأم كلثوم ، فزوجهما من عتيبة وعتبة ، ابنى عمه ابي لهب ، وقد طلقتا بعد الإسلام ، فتزوجهما ، واحدة بعد الاخرى، عثمان بن عفان، وأما فاطمة ، فتزوجت. بعد الإسلام، من علي بن أبي طالب.

وربما كان حزن محمد على ولديه ، ورغبته في ولد ذكر، يحمل اسمه ، ويعيش معه ، هو الذي جعله يطلب من خديجة أن تشتري زيد بن حارثة، الذي اعتقه ، وتبناه ، فسمى زيد بن محمد(١) وبقى معه حتى كانت بعثة محمد ، فكان زيد من خيرة الصحابة المسلمين ، وعاد إلى اسمه ، زيد بن حارثة، بعد نزول الآية : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم ، فاخوانكم في الدين ومواليكم » . كذلك وجد

---

(١) ذكرت روايات التاريخ ان والد زيد ، وكان يقيم في أطراف الشام ، ظل يبحث عنه ، حتى عثر عليه في مكة ، عند محمد ، وخيره محمد بين البقاء والذهاب ، فاختار البقاء مع محمد ، وقال له « ما أنا بالذي اختار عليك أحداً ؛ أنت مني مكان الأب والأم » فأخذه محمد إلى الكعبة ، وأشهد الناس أنه تبناه . وتزوج زيد من بركة ، فولدت له أسامة .

محمد سلوى عن فقد ابنه ، القاسم ، بإحضاره ابن عمه ، علي ابن أبي طالب ، يربيه في بيته ، حيث أشفق على عمه كثرة عياله ، وقلة ماله . وذهب إلى عمه ، العباس ، وكان من أغنياء قريش ، فقال له : « ياعباس إن أخاك ، أبا طالب ، كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا ، فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ من بنيه رجلا ، فنكفيهما عنه . » وقبل العباس وذهبا إلى أبي طالب ، فأخذ محمد علياً ، وأخذ العباس جعفراً ، وبقي عقيل عند أبيه . وكان علي يومئذ في الخامسة من عمره ، وبقي في دار محمد ، حتى جاء الإسلام .

عرفت عن محمد (ص) ، قبل البعثة ، عادة التحنث ، أو التحنث ، وهي اعتزال الناس ، والانقطاع للتفكير والعبادة . وربما كان يجد ، في تلك الساعات ، الراحة النفسية بابتعاده عما كان يعبد قومه من الأصنام والأوثان والنصب ، مما لم ترض نفسه ، في يوم من أيامه ، بعبادتها أو التماس الخير منها . فكان يفكر فيما هو خير منها ، وكان يميل إلى دين الحنيفية ، من بقايا ديانة ابراهيم . وميلا منه إلى هذا النوع من التفكير الديني ، ورغبة في حياة العزلة ، وللبعد عن قومه ، لجأ إلى الاعتكاف في غار حراء ، ويقع في أعلى جبل إلى الشمال من مكة ، ويتيح هذا الغار للمقيم فيه الخلوة والتفكير في الكون ، وما وراء الكون ، فكان محمد يقضي شهر رمضان ، من كل عام ، في هذا الغار ، مكتفياً بالقليل من

الزاد ، يحمل إليه ، ويطيل هناك ساعات للتفكير العميق، ويمارس حياة روحية طاهرة ، يهدف من ورائها إلى معرفة الحقيقة ، وسر الكون ، وخالق الدنيا . وقد سما بتفكيره فوق تلك الحجارة المنصوبة حول الكعبة ، وارتفع عن مستوى تلك الآلهة التي ما آمن يوماً بها . وما استهدف محمد ، في تلك الفترة من حياته ، أن يصل إلى ما يريد عن طريق أقوال الكهان وصحائف رهبان النصارى وأخبار اليهود ، ولم يعرف تاريخ أيامه تلك أي تردد منه على أمثال هؤلاء ، وإنما كان يتوخى كشف الحقيقة، والتوصل إلى الإيمان ، بالتفكير الدقيق في هذا الكون وآيات الخالق فيه . لقد كان محمد في غار حراء ينسى كل شيء: ينسى الجوع والظمأ ، ينسى الأهل والولد ، لكنه لم ينس البحث والتفكير والتأمل، وكان يسمو بفكره عن العالم المادي ، فينسى كل ما حوله ، يغيب في تفكيره وتأملاته ساعات ، تليها ساعات ، يبحث عن سر الكون ، يبحث عن الحق ، يبحث عن الله (جل جلاله) .